السَّمع في القرآن الكريم: دراسة موضوعية
HEARING IN THE HOLY QURĀN

أ. د. عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب
elkhatib@sharjah.ac.ae

يتناول هذا البحث مصطلح (السمع) وكيفية وروده في القرآن الكريم، فقد ورد السمع ومشتقاته في القرآن الكريم مائة وخمسا وثمانين مرة مما يدل على أهمية الدور االذي تقوم به هذه الحاسة في حياة الإنسان. وأما استخدامه في المصطلح القرآني فعندما يلاقيك فهو يعني سماع الكلام أو الأصوات وإدراك ما تنقله من معلومات. ويعبر عن السمع أحيانا ويقصد به الأذن. ونجد في الاستخدام القرآني أن السمع قد اقترن مع البصر في ثمان وثلاثين مرة وقدم في معظمها على البصر تأكيدا للمهمة التي يقوم به السمع. وقد أدرك العلماء في تقديم السمع على البصر لمحة إعجازية إذ إن تكّون حاسة السمع في رحم الأم يسبق حاسة البصر. وقد تناول المبحث الثاني المفردات التي لها تعلق بالسمع كالصمم والإنصات. وتضمن المبحث الثالث أساليب ذكر السمع في القرآن الكريم. ويختتم البحث بمناقشة مجالات استخدام السمع في التأمل بالآيات الكونية التي تشهد على عظمة الله تعالى، وفي تدبر آيات القرآن الكريم.

ABSTRACT

This article discusses the ways which the holy Quran uses the term "hearing". The holy Quran has mentioned this term and its derivatives one hundred and thirty five times. This indicates the important role which hearing plays in the life of a person's life. Whenever you find this term in the Quran, it mainly denotes hearing "speech" or "voices" or "understanding". Furthermore, the holy Quran occasionally uses "hearing" to refer to the medium of hearing i.e. the ear. In addition, the holy Quran often mentions "hearing" followed by "seeing". This occurs thirty eight times thus highlighting the importance of hearing over seeing. Scholars consider this an indication of the scientific inimitability of the holy Quran as the sense of hearing is formed in the mother's womb before the sense of seeing. The second part of this article explains the other terms related to hearing such as deafness and listening whereas the third one identifies the linguistic styles which the holy Quran uses to refer to hearing. The article concludes with a discussion of the purposes defined in the holy Quran for the use the hearing in particular contemplating signs in the universe which pare witness to the greatness of Allah as well as the full understanding of the precise meanings of the holy Quran itself.

Keywords: *Qur'an, hearing, deafness*

مقدمة

تأتي أهمية الموضوع في أن السمع من أهم الحواس في في حياة الإنسان وخاصة في التعلم والتعليم والتواصل مع الناس، وتقع على الإنسان مسؤولية كبيرة في طريقة استخدامه، وبدونه يصعب على الإنسان أن يقوم بالخلافة في الأرض وعمارتها، والمنهج الذي اتبعته هو المنهج الاستقرائي والتحليلي، حيث استقرأت الآيات التي ورد فيها مصطلح السمع في القرآن الكريم، ثم قسمت وصنفت وناقشت وحللت الآيات المتعلقة به. ويهدف هذا البحث لأمور منها: بيان أهمية السمع في القرآن الكريم، وبيان المجالات التي يجب استخدام السمع فيها، والتحذير من عدم استخدامه فيما خلقه الله له، وبيان الإعجاز العلمي واللفتات العلمية في إيراد السمع في القرآن الكريم. وتكمن إشكالية البحث في السؤال الذي أجابت عنه الدراسة وهو: إلى أي مدى حث القرآن الكريم على استخدام وسائل المعرفة عند الإنسان ومن أهمها السمع في البحث العلمي، وفي الأمور النافعة للإنسان؟ و ما أساليب ورود السمع في القرآن الكريم وعلاقة ذلك بالإعجاز العلمي في القرآن؟

أما الدراسات السابقة فهناك دراسات عديدة تناولت السمع في القرآن الكريم منها ثلاث وقفت عليها، منها: "حاسة السمع في القرآن العزيز"، لعبد القادر شحرور،[١] وفيها تناول معنى الأذن والسمع في القرآن الكريم وأنه يتضمن ثلاث درجات معروفة في علم الوظائف: الإحساس بالصوت دون فهم، ومع الفهم، ومع الفهم بالإضافة إلى الاقتناع والإيمان والطاعة، ثم فرق بين السمع والاستماع والإنصات والإصغاء، وتكلم عن السمع في الآخرة، ثم عن أهمية السمع وأنه من وسائل المعرفة والإدراك، وسبب كونه أهم من حاسة البصر، وتكلم عن وجه من وجوه الإعجاز في ذكر السمع في القرآن الكريم. لكن الباحث لم يتطرق إلى أمور عديدة أخرى في مجالات ذكر السمع في القرآن الكريم، ولا عن أساليب ذكر السمع، ولا عن وجوه الإعجاز العلمي في الحكمة من تقديم السمع على البصر في القرآن الكريم. و"الدلالات العلمية والتربوية في ترتيب ألفاظ السمع والبصر"، لخالد يوسف القضاة،[٢] تناول الدلالات العلمية والتربوية في تلازم وترتيب ألفاظ السمع والبصر وألفاظ العين والأذن في القرآن الكريم، كما يهدف إلى تفسير أسباب تقديم السمع على البصر وأسباب تقديم العين على الأذن في ضوء الاكتشافات العلمية، ومن خلال المنهج الاستقرائي التحليلي والوصفي لآيات القرن الكريم توصل الباحث إلى جملة من النتائج من أبرزها: تقديم ألفاظ السمع على ألفاظ البصر مقصود وله فوائد، وذكر أسباب تقديم ألفاظ العين على ألفاظ الأذن. لكن الباحث لم يتطرق لمجالات استخدام السمع والبصر للأساليب التي ذكر فيها السمع في القرآن الكريم كما تطرقت إليها. و"الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم"، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي[٣]، تناول الباحثان القضايا المتعلقة بالسمع والبصر من ناحية طبية وعلاقتها بالإعجاز العلمي، وقد استفدت من هذه الدراسة في مجال الإعجاز العلمي، أما النواحي اللغوية والأمور الأخرى التي تطرقت إليها في بحثي فلم يعالجها هذا البحث.

---

[١] لعبد القادر شحرور، مقالة نشرت في موقع صيد الفوائد ، http://www.saaid.net/Minute/251.htm

[٢] نشر في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية بجامعة آل البيت ٢-١١-٢٠٠٧م.

[٣] هيئة الإعجاز العلمي، جدة ٢٠٠٦، ط٣، والإعجاز العلمي للقرآن الكريم في السمع والبصر والفؤاد، صادق الهلالي، مجلة الإعجاز، ع٩، صفر ١٤٢٢م.

المبحث الأول: معنى السمع في القرآن الكريم

المطلب الأول: السمع في اللغة وفي الاستعمال الطبي

أوَّلا: في اللغة

قال ابن فارس: "السين والميم والعين أصلٌ واحد، وهو إيناس الشيء بالأذن من الناس وكل ذي أذن،[٤] ويعرف العلماء السمع بأنه: "قوة في الأذن تدرك المسموعات"[٥] ويطلق السمع في اللغة على سمع الإنسان وغيره، ويطلق على المصدر والاسم والأذن، ويكون واحدا ومصدرا كما في قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ (البقرة: ٧) لأنه في الأصل مصدر قولك: سمع الشيء بالكسر سَمعا وسِمعا وسَماعا وسماعة وسماعية، وقد يجمع على أسماع، وجمع الأسماع أسامع، وقال اللحياني[٦]: السَّمع: المصدر، والسِّمع الاسم، وفَعَلهُ رياءً وسُمعة أي: ليراه الناس وليسمعوا به، واستمع له أي: أصغى إليه، فإذا أدغمتَ قلتَ اسّمع إليه، وقرئ: ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(الصافات: ٨)، يقال: تسمعت إليه، سمعت إليه، سمعت له، وكله بمعنى لأنه تعالى قال:﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ (فصلت: ٢٦)، وقرئ: (لا يسمعون إلى الملإ الأعلى) مخففا[٧]، وتسامع به الناس، وأسمعه الحديث، وقوله تعالى: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ (النساء: ٤٦) فسره ثعلب فقال: اسمع لا سمعت، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (النمل: ٨١) أراد بالإسماع ههنا القبول والعمل بما يسمع، لأنه إذا لم يقبل ولم يعمل كان بمنزلة من لم يسمع، وسمعه الصوت، وقد تأتي سمعت بمعنى أجبت ومنه قولهم: سمع الله لمن حمده، أي أجاب حمده وتقبله، ويقال: اسمع دعائي أي: أجب، لأن غرض السائل الإجابة والقبول وعليه ما أنشد أبو زيد:

---

[٤] معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، (بيروت: دار الجيل، لا تاريخ)، ١٠/٣.

[٥] عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق محمد عيون السود، (بيروت؛ دار الكتب العلمية، ١٩٩٦)، ط١ ٢٢/٢ التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحق إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٨)، ط ٤، ص: ١٦١.

[٦] عَليّ بن الْمُبَارك، وَقيل: ابْن حَازِم، أَبُو الْحسن اللحياني، من بني لحيان بن هُذَيْل بن مدركة، وَقيل: سمي بِهِ لعظم لحيته. أَخذ عَن الْكسَائي، وَأبي زيد، وَأبي عَمْرو الشَّيْبَانِيّ، والأصمعي، وَأبي عُبَيْدَة، وعمدته على الكسَائي، وَأخذ عَنهُ الْقَاسِم بن سَلام؛ وَله كتاب: النوادر الْمَشْهُور، قال عنه الفراء: هذا أحفظ الناس للنوادر. انظر ترجمته في: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (صيدا: المكتبة العصرية، لا تاريخ)، ١٨٥/٢، وإنباه الرواة على أنباه النحاة، أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، المكتبة العصرية، (بيروت: ١٤٢٤)، ط١، ٢٥٥/٢، ومعجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م)، ط١، ١٨٤٣/٤-١٨٤٤.

[٧] النشر في القراءات العشر، محمد بن محمد بن الجزري، تحقيق محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية، بيروت، لا تاريخ)، ٣٥٦/٢.

دعوتُ اللهَ حتى خفت أن لا يكون اللهُ يسمعُ ما أقولُ

ومنه الحديث: (اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ومن دعاء لا يسمع)[٨]، أي: لا يستجاب ولا يعتد به فكأنه غير مسموع. والسمع ما وقر في الأذن من شيء تسمعه، ويقال: ساء سمعا فأساء إجابة، أي: لم يسمع حسنا، ورجل سمّاع إذا كان كثير الاستماع لما يقال وينطق به، وقد فسر قوله الله عز وجل: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ (المائدة: ٤١) على وجهين: أحدهما: أنهم يسمعون لكي يكذبوا فيما سمعوا، ويجوز أن يكون معناه: أنهم يسمعون الكذب ليشيعوه في الناس. والسماع كله الذكر المسموع الحسن الجميل، ويقال: ذهب سمعه في الناس وصيته أي ذكره، وقال اللحياني: هذا أمر ذو سمع وذو سماع إما حسن وإما قبيح، ويقال: سمع به إذا رفعه من الخمول ونشر ذكره، السماع ما سمعت به فشاع وتكلم به وكل ما التذته الأذن من صوت حسن سماع، السماع الغناء، والمسمعة المغنية، وسمّع بالرجل أذاع عنه عيبا وندد به وشهره وفضحه، ومن التسميع بمعنى الشتم وإسماع القبيح قوله ﷺ: (من سمَّع بعبد سمَّعَ اللهُ به)[٩]، وسمّعه أي: شتمه[١٠].

ثانيا: في الاستعمال الطبي

حاسة السمع إحدى الحواس الخمس بها نتمكن من إدراك الأصوات أو الإحساس بها. ولابد لتحقق هذا الإدراك السمعي الذي يستقبل التنبيهات السمعية من البيئة المحيطة وينقلها عبر العصب السمعي إلى المراكز السمعية في المخ التي تتم فيها معالجة المعلومات السمعية من توافر ثلاثة أشياء: مصدر يحدث ذبذبات صوتية، ووسيطكالهواء مثلا ينقل هذه الذبذبات عبره، وعضو مستقبل يتلقى الذبذبات ويستجيب لها. وهذا العضو المستقبل هو عند الإنسان والحيوانات الفقارية الأذن، ومن هنا فالأذن هي عضو السمع كما أن العين عضو الإبصار... والأذن البشرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأذن الخارجية والوسطى، والباطنية. وفي حال السَّماع السوي تدخل موجات الصوت قناة الأذن الخارجية المعروفة بـ (القناة السمعية الخارجية) وتقرع غشاء رقيقا يُعرف بـ (طبلة الأذن) فتُحدث فيه بعض الذبذبات. ومن ثَمَّ تُنقل هذه الذبذبات عبر تجويف الأذن الوسطى العظميّ بواسطة عُظيمات

---

[٨] أخرجه أبو داود في سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الفكر)، ٩٢/٢، رقم الحديث: ١٥٨٤، وأخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، لا تاريخ)،٥١٩/٥، رقم الحديث: ٣٤٨٢، وقال الترمذي حديث حسن صحيح غريب.

[٩] أخرجه البخاري في الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير ١٩٨٧)، ط٣، ٢٦١٥/٦، رقم الحديث: ٦٢٦١٥، وأخرجه مسلم في المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، لا تاريخ)، ٢٢٨٩/٤، رقم الحديث: ٤٢٢٨٩.

[١٠] قارن مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، تحقيق محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٥). ١٣٢/١، ولسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، (بيروت: دار صادر ، ١٩٩٢)، ط١، ١٦٢/٨-١٦٨.

ثلاث هي: المطرقة hammer، والسندان anvil، والركاب strirrup، لتُرسَل بعد إلى القوقعة cochlea وهي عضو لولبي في الأذن الباطنية، حيث تُترجم إلى اندفاعات عصبية وبذلك يتم السماع[١١].

المطلب الثاني: مصطلح السمع ومنزلته من الحواس في الاستعمال القرآني

أوَّلا: مصطلح السمع في الاستعمال القرآني

ذكر القرآن الكريم السمع ومشتقاته وتصاريفَه مائة وخمسا وثمانين مرة. وحيثما وردت كلمة السمع في القرآن قصد منها سماع الكلام والأصوات وإدراك ما تنقله من معلومات[١٢]. ويعبر بالسمع تارة عن الأذن نفسها قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: ٢)، وتارة عن فعله كالسماع نحو قوله تعالى :﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٢) وأحيانا أخرى يطلق السمع على الفهم نحو قوله تعالى ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنفال: ٢٣) أي لو علم فيهم خيرًا لأفهمهم ما يسمعون، وتقول :اسمع ما أقول لك ولم تسمع ما قلت، تعني لم تفهم، وقال تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (البقرة: ٩)، أي فهمنا قولك ولم نأتمر لك[١٣]، وكل موضع أثبت الله السمع فيه للمؤمنين أو نفاه عن الكافرين أو حث على تحريه فالقصد به إلى تصور المعنى والتفكر فيه قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢١) أي ولا تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة الله ورسوله محمد ﷺ كالمشركين والمنافقين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا سمعنا بآذاننا وهم في الحقيقة لا يتدبرون ما سمعوا ولهذا السبب وصفهم الله تعالى بأنهم صم بكم فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنفال: ٢٢-٢٣)[١٤].

ثانيا: منزلة السمع من الحواس في ضوء دلالات القرآن الكريم

---

[١١] موسوعة المورد، دائرة المعارف، إنكليزية عربية مصورة، منير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١)، ٨٣/٥، الإدراك الحسي البصري والسمعي، السيد علي سيد أحمد وفائقة محمد بدر، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ٢٠٠١/١٤٢٢)، ط١، ص: ٢٥٤، وانظر كذلك: Elaine N. Marieb, *Essentials of Human Anatomy and Physiology*, (San Fancisco: Pearson Education, 2012), 10th ed., pp.292-299

[١٢] الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في السمع والبصر والفؤاد، صادق الهلالي، مجلة الإعجاز، العدد التاسع، صفر 1422 ص: ٦.

[١٣] المفردات فى غريب القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحق محمد خليل عيتاني، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨م، ط١، ص: ٢٤٨-٢٤٩.

[١٤] قارن بالمفردات فى غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص: ٢٤٩.

قرن الله عز وجل في القرآن ذكر السمع مع البصر المتعلقان بالإنسان في ثمان وثلاثين آية كريمة، وقد قدم القرآن ذكر السمع على البصر في أكثر الآيات مما يدل على الأهمية الكبرى للعمل الذي يقوم به السمع في حياة الإنسان تعلما وتعليما، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨)، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ (السجدة: ٩)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ ﴾ (الإسراء: ٣٦)، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ (يونس: ٣١)، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧٨) وغيرها من مواضع.

وقد استنبط العلماء المعاصرون من تقديم السمع على البصر حكما عديدة: من أهمها:

١- فضل السمع على البصر إذ تعتبر حاسة السمع أهم للإنسان من حاسة البصر لأن الفرد الأعمى يعتبر معزولا عن عالم الأشياء، أما الأصم فإنه يعتبر معزولا عن عالم البشر[١٥].

٢- تأكيد الدور الذي تقوم به الأذن إذ إن الإحساسات الصوتية التي يسمعها الإنسان بأذنيه تصل مستوى الوعي أحسن من تلك التي تصله عن غير طريقهما كالبصر مثلا، والذاكرة السمعية أرسخ من الذاكرة البصرية،[١٦] وما أجمل الوصف القرآني للدور الإيجابي الذي تقوم به الأذن في وعي المؤمن إذ يقول تعالى: ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ (الحاقة: ١٢).

٣- وفي تقديم السمع على البصر لمحة إعجازية طبية إذ ثبت علميا أن "جهاز السمع يتطور ويتكامل جنينيا قبل جهاز البصر"[١٧]، فبعد تبصرنا في الحقائق العلمية التي عرفت حديثا في علوم الأجنة والتشريح والفيزولوجيا والطب اتضح لنا الإعجاز العلمي في الآيات الكريمة التي تقدم فيها السمع على البصر، وخلاصة ما قاله العلماء في هذا المجال هو أن القرآن الكريم قدم حاسة السمع على حاسة البصر ليشير إلى حقيقة علمية تتعلق بزمن تكون حاسة كل منهما وتشكلها، فحاسة السمع تتكون وتتشكل قبل حاسة البصر حسب الآتي:

أ- جهاز السمع يتطور جنينيا قبل جهاز البصر، ويتكامل وينضج حتى يصل حجمه في الشهر الخامس من حياة الجنين الحجم الطبيعي له عند البالغين، بينما لا يتكامل نضوج العينين إلا عند السنة العاشرة من العمر.

ب- يبدأ الجنين بسماع الأصوات وهو في رحم أمه وفي الشهر الخامس من حياته الجنينية، ولكنه لا يبصر النور والصور إلا بعد ولادته.

---

[١٥] الإدراك الحسي البصري والسمعي، السيد علي سيد أحمد وفائقة محمد بدر، ص: ٢٥٣.

[١٦] الإعجاز العلمي للقرآن الكريم فى السمع والبصر، صادق الهلالي، مجلة الإعجاز، ص: ٩-١٠.

[١٧] المرجع السابق نفسه، ص: ٧.

ج- تتطور وتنضج كل المناطق والطرق السمعية العصبية قبل تطور ونضوج مثيلاتها البصرية بفترة طويلة نسبيا. فكل الآيات التي تشير إلى **خلق الإنسان ونشأته** وذكر فيها السمع والبصر، قدم السمع على البصر؛ قد يكون –والله أعلم- الغاية منه إظهار هذا الإعجاز العلمي الذي لم نهتد لمعرفته إلا مؤخرا بعد سبر غور الحقائق العلمية الحديثة التي أثبتت قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣)[١٨].

د- إضافة لما سبق فلعله من حكمة إيراد السمع في القرآن بصيغة المفرد دون الجمع كالأبصار هو أن "الإنسان لا يمكنه سماع صوتين مختلفين في آن واحد، بينما يمكنه إبصار أكثر من شيء بالعين الواحدة"[١٩].

ويلاحظ أيضا أن القرآن الكريم يفصل عند كلامه عن السمع والبصر بين أداة الحس (العين والأذن)، وقوة الإدراك (السمع والبصر)، فعند كلامه عن أداة الحس العين والأذن يقدم العين على الأذن، وذلك لأن العين تقع أمام الأذن في صنعة الله في رأس الإنسان، وهما أداتان لنقل الإشارات الحسية السمعية والبصرية إلى حيث يتم إدراكها وفهمها داخل مراكز السمع والبصر في المخ، فمثلا يقول الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة: ٤٥)، وأما إذا تكلم القرآن عن السمع والبصر كقوى مدركة فيقدم السمع[٢٠] وذلك لأن مركز السمع يتقدم على مركز البصر داخل المخ البشري وهنا موطن الإعجاز في تطابق الإخبار عن هذين الأمرين.

وخلاصة القول في الإعجاز المتعلق بآيات السمع والبصر أن هذه الآيات: "فصلت بين الأعضاء (العين والأذن)، وبين القوى المدركة (السمع والبصر) وفي صنعة الله ما يطابق ذلك فهناك أعضاء حس لاستقبال المؤثرات الحسية، وهناك مراكز داخل المخ البشري تتم فيها عملية الإدراك والفهم لهذه المؤثرات الحسية. وأيضا من ناحية الترتيب نجد أن الحق سبحانه رتب الآيات: العين قبل الأذن، والسمع قبل البصر، في غالب القرآن وها هو العلم اليقيني قد أثبت أنه بينما تتقدم العين الأذن في رأس الإنسان، فإننا نجد عكس ذلك الترتيب بالنسبة للمراكز، فمركز السمع يتقدم مركز الإبصار في قشرة المخ البشري. إذن طابق كلام الله صنعة الله، إنه الإعجاز: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١)"[٢١].

---

[١٨] الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي، هيئة الإعجاز العلمي، جدة ١٤٢٧/٢٠٠٦، ط٣، ص: ١٧-٢٨.

[١٩] موسوعة الإعجاز العلمي، الإنسان من الميلاد إلى البعث في القرآن الكريم، زغلول النجار، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٢٨/٢٠٠٧)، ١٦٤/٥.

[٢٠] وذلك مثل قوله تعالى: (إن السمع والبصر والفؤاد كل اؤلئك كان عنه مسؤولا) (الإسراء:٢٧٨)، وقوله تعالى: (وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) (المؤمنون: ٧٨).

[٢١] الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي، هيئة الإعجاز العلمي، ص: ٥١.

المطلب الثالث: وصف الله تعالى وتسميته بالسميع:

من صفات الله تعالى وأسمائه السميع، وهذا الأمر من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة[٢٢]، وقد دل على ذلك آيات كثيرة في القرآن الكريم، وقد ذكر الله تعالى هذا الاسم الكريم في القرآن الكريم ثمان وثلاثين مرة بصيغة فعيل منكرا ومعرفا: (سميع)، وذكر هذا الوصف بصيغة الماضي (سمع) والمضارع (يسمع) و(نسمع)، وصيغة التعجب (أسمع). وقد جاء ذكر سمع الله تعالى مقترنا بأمور هي:

١-قد اقترنت صفة السمع في معظم آيات القرآن بصفة العلم بل تقدمت عليها[٢٣]، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧). ٢-اقترنت أحيانا صفة السمع بالبصر كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)[٢٤]. ٣-تقترن كذلك صفة السمع بالقرب كما في قوله تعالى:﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (سبأ: ٥٠)، ولعل اقتران اسم الله السميع بأسمائه البصير والعليم والقريب للدلالة على نفوذ هذا الاسم وحضور هذه الصفة في كل آن وفي كل مكان فكما أن الله تعالى يرى ويعلم كل شيء وهو قريب من كل شيء فهو كذلك يسمع كل شيء سبحانه ما أعظم شأنه وما أجل سلطانه. وقد ذكر الإمام البيهقي في كتابه الأسماء والصفات في: باب ما جاء في إثبات صفة السمع، أحاديثَ عديدة دالة على ثبوت صفة السمع لله تعالى ومنها:[٢٥] عن عائشة رضي الله عنها قالت: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ (المجادلة: ١) [٢٦].

---

[٢٢] المواقف في علم الكلام، عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، (بيروت: عالم الكتب، لا ت)، ص: ٢٩٢.

[٢٣] معجم كلمات القرآن العظيم، محمد عدنان سالم و محمد وهبي سليمان، (دمشق: ١٩٩٨) ط١، ص: ٦٠٧-٦٠٨.

[٢٤] مما استنبطه العلماء في تقديم السمع على البصر في القرآن الكريم حيث وقع: أن السمع تنال به سعادة الدارين، فإن السعادة بأجمعها في طاعة الرسل والإيمان بما جاؤوا به، وهذا إنما يدرك بالسمع. بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، ج١/١٢٣-١٢٤، نقلا عن شرح ابن القيم لأسماء الله الحسنى، عمر سليمان الأشقر، ص: ٨١-٨٢. وقال ابن القيم: " أما تقديم السمع على البصر فهو متقدم عليه حيث وقع في القرآن مصدرا أو فعلا أو اسما"، انظر بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، ج١، ص: ١٢٣-١٢٤، نقلا عن شرح ابن القيم لأسماء الله الحسنى، عمر سليمان الأشقر، (عمان: دار النفائس، ١٤٢٨\٢٠٠٨)، ط١، ص: ٨١.

[٢٥] كتاب الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عماد الدين حيدر، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤)، ط٢، ص: ٢٨٨-٢٩٢.

[٢٦] أخرجه البخاري في الجامع المسند الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، (دار طوق النجاة، ١٤٢٢)، ط١، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وكانه الله سميعا بصيرا، ١١٧/٩، وأخرجه ابن ماجه في سننه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، لا تاريخ)، باب فيما أنكرت الجهمية، ٦٧/١، رقم الحديث: ١٨٨، والحديث في الأعلى من سنن ابن ماجه حيث رواه البخاري بألفاظ مختلفة.

المطلب الرابع: المفردات التي لها تتعلق بالسمع في القرآن الكريم

أولا: الإنصات

الإنصات لغة يدل على السكوت والاستماع للحديث، يقال: نَصَتَ الرجلُ يَنْصِتُ نَصْتاً، وأَنْصَتَ، وانْتَصَتَ: سكَتَ، والنُّصْتَةُ: الِاسْمُ مِنَ الإِنْصاتِ، ويُقَالُ: أَنْصَتَ يُنْصِتُ إِنْصاتاً إِذا سَكَتَ سُكوتَ مُسْتَمِع[٢٧].

وورد الإنصات في القرآن في موطنين كليهما في سورتين مكيتين: ١- قال الله تعالى:﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤)، ٢-وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ (الأحقاف: ٢٩). وأما قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤)؛ فقد أمروا بالاستماع دون السماع فقط، إذ "الِاسْتِمَاعُ عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِهِ بِحَيْثُ يُحِيطُ بِذَلِكَ الْكَلَامِ الْمَسْمُوعِ عَلَى الْوَجْهِ الْكَامِلِ، قَالَ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ (طه: ١٣) وَالْمُرَادُ مَا ذَكَرْنَاهُ"[٢٨]، وقال الإمام الطبري في تأويل الآية: "أصغوا له سمعكم، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه وأنصتوا إليه لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، يقول: ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آيه"[٢٩]. ووجوب الاستماع والإنصات للقرآن المأمور به في هذه الآية الكريمة منصرف إلى حالتين فقط هما: المأموم في الصلاة، والمستمع لخطبة الجمعة ممن وجبت عليه الجمعة[٣٠]. ومن دلالات الآية التي تلت هذه الآية -وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ (الأعراف: ٢٠٥)- أن الله أمر المستمع للقرآن إما في الصلاة أو الخطبة ليذكره بالقلب باستدامة الفكر حتى لا ينسى نعم الله الموجبة لطاعته[٣١]، وليتفكر في الآيات المتلوة حتى يتمكن الخشوع من قلبه، ويقول ابن عاشور في تفسير الاستماع والإنصات: "الِاسْتِمَاعُ وَالْإِنْصَاتُ الْمَأْمُورُ بِهِمَا هُمَا الْمُؤَدِّيَانِ بِالسَّامِعِ إِلَى النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ،

---

[٢٧] العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (دار ومكتبة الهلال، لات) ١٠٦/٧، معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤٣٤/٥، لسان العرب، ابن منظور، ٩٨/٢، تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد الزبيدي، (دار الهداية، لا مكان، لا تاريخ) ١٢٣/٥.

[٢٨] مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠)، ط٣، ٤٤٠/١٥.

[٢٩] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠)، ط١، ٣٤٥/١٣.

[٣٠] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت شاكر، ٣٥٣/١٣.

[٣١] النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (بيروت: دار الكتب العلمية، لا تاريخ)، ٢٩٠/٢.

وَالِاهْتِدَاءِ بِمَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى صدق الرَّسُول ﷺ قْضِيِّ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَلِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ إِصْلَاحِ النُّفُوسِ، فَالْأَمْرُ بِالِاسْتِمَاعِ مَقْصُودٌ بِهِ التَّبْلِيغُ وَاسْتِدْعَاءُ النَّظَرِ وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهِ، فَالِاسْتِمَاعُ وَالْإِنْصَاتُ مَرَاتِبُ بِحَسَبِ مَرَاتِبِ الْمُسْتَمِعِينَ. فَهَذِهِ الْآيَةُ مُجْمَلَةٌ فِي مَعْنَى الِاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ"[٣٢]، والقرآن يذكر الْمُشْرِكِينَ تَصْرِيحًا أَوْ تَعْرِيضًا بِأَنْ لَا يُعْرِضُوا عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ وَبِأَنْ يَتَأَمَّلُوهُ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ آيَةٌ عَظِيمَةٌ، وَأَنَّهُ بَصَائِرُ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، لِمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَلَا يُعَانِدُ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ أَحْوَالِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ الْإِنْصَاتِ إِلَى الْقُرْآنِ ولهذا أكد القرآن ضرورة الاستماع وهو الإصغاء باستعمال صيغة الافتعال الدالة على المبالغة في الفعل عند الاستماع للقرآن للرد على المشركين الذين تنادوا كي لا يسمعوا للقرآن، وزاد المعنى تأكيدا باستخدام الْإِنْصَات وهو الِاسْتِمَاعُ مَعَ تَرْكِ الْكَلَامِ فَهَذَا مُؤَكَّدُ (لَا تَسْمَعُوا) مَعَ زِيَادَةِ مَعْنًى. وَذَلِكَ مُقَابِلُ قَوْلِهِمْ: ﴿لَاتَسْمَعُوا۟لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِوَٱلْغَوْا۟فِيهِ﴾ (فصلت: ٢٦)[٣٣].

ثانيا: الصَّمم

ذكر القرآن وصفًا مضادا للسمع وهو **الصمم**[٣٤]. والصمم كما قال في لسان العرب والقاموس المحيط هو: انسداد الأذن وثقل السمع[٣٥]، ورجل أصم، والجمع صمٌّ وصُمّانٌ بضَمِّهما وأَصَمَّه الله تعَالى فهو أَصَمُّ وشاهِدُ الصّم قَولُه تعالَى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (البقرة: ١٨) جعلَهم كذلِك بِمَنزِلَة منْ لا يَسمَع ولا يُبصِر ولا يعِي لِعدِم وَعيِهم واعْتِبَارِهم بما عاينُوه من قُدرَةِ اللهِ عزَّ وجل كما قال الشّاعِر:

أصمُّ عمَّا ساءَه سمِيعُ

يقول: يتَصامم عمَّا يسُوءُه، وإن سمِعَه فكان كأَن لم يَسمَعْه، فهو سمِيعٌ ذو سَمع أَصَمّ في تغَابِيه.

ومنه أَيضاً: ولي أُذُنٌ عن الفَحشَاءِ صمّا.[٣٦] وقال ابن فارس: الصاد والميم أصل يدل على تضام الشيء وزوال الخرق والسم، من ذلك الصمم في الأذن، والصماء الداهية كأنه من الصمم أي هو أمر لا فرجة له فيه، وصمام القارورة سمي بذلك لأنه يسد الفرجة،وقولهم: صمم في الأمر إذا مضى فيه راكبا رأسه فهو من القياس الذي ذكرناه، كأنه لما أراد ذلك لم يسمع عذل عاذل، ولا نهي ناه فكأنه أصم[٣٧]، والصمم هو "فقدان حاسةِ السمعِ، وبه شبه من لا يصغي إلى الحق ولا يقبله، والقوم كانوا سامعين ناطقين مبصرين، لكن لما لم يسمعوا القرآن ولم يقرؤوه ولم ينظروا في دلالاته جعلوا كذلك"[٣٨]، وقال تعالى في وصف المنافقين: ﴿

---

[٣٢] التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤)، ٢٣٨/٩.

[٣٣] التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢٣٩/٩.

[٣٤] ذكر في القرآن الكريم ست عشرة مرة.

[٣٥] لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، (بيروت: دار صادر، لا ت)، ط١، ٣٤٢/١٢-٣٤٣.

[٣٦] تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، (دار الهداية، لا م، ت)، ٥١٣/٣٢.

[٣٧] معجم مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، مادة صمم.

[٣٨] عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٣٥٤/٢.

صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ ﴾ (البقرة: ١٨)، أي صم عن سماع الحق سماع تدبر، بكم عن النطق به، عمي عن إبصار نور الهداية، ووصف الله تعالى الذين لا يستخدمون أدوات التفكير كالسمع في مجال البحث في عظمة الخالق سبحانه وتعالى في الكون وقدرته وعلمه المحيط بكل شيء؛ بالصم بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (الأنعام: ٣٧-٣٩).

وقد اقترن لفظ الصمم والبكم في آيات عديدة من القرآن الكريم مثل[٣٩] قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧١) وفي ذلك لفتة علمية إعجازية إذ إن "المولود الذي يولد فاقدا لحس السمع يصبح أبكم بالإضافة إلى صممه، ولن يتمكن من تعلم النطق والكلام، أما الذي يولد فاقدا لحس البصر فإنه يمكنه أن يتعلم النطق بسهولة"[٤٠].

ثالثا: الوقر

الوقر: ثقل في الأذن، بالفتح، وقيل: هو أن يذهب السمع كله، والثقل أخف من ذلك. وقد وقرت أذنه، بالكسر، توقر وقرا أي صمت، ووقرت وقرا[٤١]، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا ﴾ (الكهف: ٥٧) فالقرآن الكريم يذم أولئك الذين يسمعون القرآن ولا يعملون به ويشبههم بمن في أذنيه وقرٌ، ويلاحظ اقتران وصف الوقر بالأذن عند الكلام عن موقف الكفار من القرآن ومعاقبة الله سبحانه وتعالى لهم بذلك[٤٢]، ويلاحظ كذلك أنها وردت دائما في موطن الذم، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا ﴾ (الأنعام:٢٥)، وذلك لغلظ نفوسهم

---

[٣٩] مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾(الأنعام: ٣٩).

[٤٠] الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في السمع والبصر والفؤاد، صادق الهلالي، مجلة الإعجاز، ص: ١٠.

[٤١] انظر لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، تحق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، (القاهرة: دار المعارف، لا تاريخ)، ٤٨٨٩/٢؛ والصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحق أحمد عبد الغفور عطار، (القاهرة: دار الكتاب العربي بمصر، ١٣٧٦\١٩٥٦)، ٨٤٨/٢.

[٤٢] انظر آيات مماثلة مثل :سورة الأنعام25 :، الكهف57 :، لقمان:٧.

وبعدها عن الخير، وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم[٤٣].

المبحث الثاني

أساليب ذكر السمع في القرآن الكريم:

ذكر السمع في القرآن الكريم بأساليب عديدة ومن أهمها:

المطلب الأول: أسلوب المدح والذم

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:١٧– ١٨)، فقد مدح الله تعالى أصحاب العقول والحجا الذين يستمعون القول ويفهمون ما سمعوه ويستثمرون فهمهم في العمل الصالح، ويتبعون أرشده وأهداه وأدله على توحيد الله والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القول الذي لا يدل على رشاد، ولا يهدي إلى سداد، فأولئك وفقهم الله للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن إصابة الحق ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع[٤٤].

وجعل القرآن من صفة المؤمن الإجابة لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ، ويتعرض للتعبير عن ذلك بقولهم: سمعنا وأطعنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٥١) ومن صفات المؤمنين التأثر والخشوع عند سماع القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٨٣).

أما في أسلوب الذم، فقد ذم القرآن أولئك الذين لا يعملون بما سمعوه من حق وجعلهم كالصم بل في دركة أدنى من الحيوان ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(الأعراف:١٧٩).

---

[٤٣] قارن بالمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، محمد عبد الحق بن عطية، تحق عبد الله الأنصاري وعبد العال إبراهيم ومحمد الشافعي العناني، (الدوحة: ١٩٨٣)، ١٦٢/٥–١٦٣، وبالجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة :ط دار الكتب المصرية، (١٩٣٨)، ج: ٤٠٤/٦.

[٤٤] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت العطار، ٢٤٥/٢٢.

بل جعل القرآن من لا يؤمن بما سمع من الحق كالميت قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (النمل: ٨٠-٨١)[٤٥] فالله تعالى يعلم نبيه محمدا ﷺ بأنه ليس بهادٍ عن الضلالة من أعماه الله عن الهدى والرشاد وأمات قلبه، ولا يمكنه أن يسمع إلا من يصدق بآياته فهم مسلمون مطيعون مستجيبون لما دعوتهم إليه[٤٦]، وقال الواحدي: " إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه من التوحيد كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، وكالصم الذين لايسمعون.. وما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان[٤٧]"

المطلب الثاني: أسلوب الأمر والنهي

أتى أسلوب الأمر في آيات عديدة[٤٨] مثل قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ﴾ (البقرة: ٩٣)، ففي هذه الآية أمر الله تعالى بني إسرائيل بالأخذ بما نزل في كتابهم بثبات وعزم وفاعلية، ثم أمرهم بالسمع الذي يفيد الطاعة المباشرة .واختلف السياق حينما تحدث القرآن عن المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالأسلوب نفسه فقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾[٤٩] (التغابن: ١٦) فالفرق هنا أن الأمر بالسمع جاء بعد الأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة. وأما خطاب بني إسرائيل فكان الأمر فيه مشددًا ومؤكدًا

---

[٤٥] ومثله قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزخرف: ٤٠).

[٤٦] قال ابن جزي الغرناطي: "أكد عدم سماعهم بقوله :﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (النمل: ٨٠) لأن الأصم إذا أدبر وبعد عن الداعي زاد صممه وعدم سماعه بالكلية"، انظر : التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الغرناطي، تحقيق عبد الله الخالدي، (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، د. ت)، ١٠٧/٢ وقارن بالتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٣٤٨.

[٤٧] الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي، تح عادل عبد الموجود و علي محمد معوض وآخرون، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥/١٩٩٤)، ط١. ٣٨٤/٣.

[٤٨] الآيات الأربع التي استشهدت بها في النص أضف لها قوله تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ (النساء: ٤٦)، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٠٤)، وقوله تعالى:﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (المائدة: ١٠٨)، وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ (يس: ٢٥)،)، وقوله تعالى:﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ (طه: ١٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (ق: ٤١).

[٤٩] انظر كذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ﴾ (المائدة: ١٠٨).

بتذكيرهم بعهد الله عليهم بالأخذ بأوامر التوراة بقوة ونشاط وجد والاستماع والطاعة لما فيها من أوامر إلا أن بني إسرائيل تعنتوافي طاعة نبيهم موسى عليه السلام فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (البقرة: ٩٣).

ويأمر الله تعالى المؤمنين بالاستماع والإنصات إلى آيات الله عندما تتلى عليهم ليتدبروها ويتفكروا بها طمعًا في أن تنزل عليهم رحمة الله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠). وكذلك يأمر الله تعالى الناس مؤمنهم وكافرهم أن يستمعوا لمثل من أمثاله العجيبة التي يضربها الله تعالى في القرآ؛ لإثبات وحدانيته وقدرته على الخلق والإبداع فيؤمن به المؤمنون وتقوم به الحجة على الكافرين وليثبت لهم انتفاء ألوهية من سواه سبحانه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:٧٣)، فالخلق كلهم ليسوا فقط عاجزين عن خلق ذباب بل هم أضعف من ذلك، إن سلبهم الذباب شيئا لا يستطيعون إرجاعه لأنه تحلل بمجرد امتصاص الذباب له، فمن عجز عن فعل ذلك فهو عاجز من باب أولى أن يخلق، فإن ثبت عجزه ثبت أنه ليس بإله، فكيف له أن يدعي الألوهية من دون الله تعالى؟، ومن هنا كان جدير بكل الناس أن يستمعوا لهذا المثل ليعتبروا.

أما أسلوب النهي، فقد ورد منه في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢١)، فجاء النهي عن أن يكون المؤمن مثل أولئك الذين أنعم الله عليهم بنعمة السمع بيد أنهم عطلوها بعدم اتباعهم للحق فكأنهم لا سمع لهم أصلا ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٣)، أما المؤمنون فمن صفاتهم سماع أوامر الله تعالى وطاعة تلك الأوامر ولهذا مدح الله المؤمنين فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٥١).

المطلب الثالث: أسلوب التوكيد والقصر

ورد أسلوب التوكيد في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء:٢٧٨)، أكد كلامه عن وسائل المعرفة الإنسانية السمع والبصر والفؤاد بـ (إن) و(كل)، والجملة الاسمية، وذلك لتمكين المعنى في نفوس المخاطبين وهو أن وسائل المعرفة والإدراك العظيمة هذه سيسأل عنها الإنسان يوم القيامة.

ونجد أسلوبًا آخر للتوكيد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٨) فقد أكد الجملة بضمير الشأن (هو) ليفيد القصر والاختصاص بأنه تعالى وحده وهب الإنسان وسائل المعرفة، "وإنما خص السمع والأبصار والأفئدة لأنه يتعلق بها المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها، ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم. ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا

إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الأحقاف:٢٦)، ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها، وأن لا يجعل له ندّ ولا شريك"[٥٠].

أما أسلوب القصر بإنما، فقد ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٦)، فهنا استخدم أسلوب القصر بإنما لحصر الاستجابة لأوامر الله تعالى في الذين يستفيدون من نعمة السمع حق الاستفادة، ويوظفونها في معرفة المعبود جل جلاله وعبادته كما شرع، أما الكفار الذين حرص النبي على هداهم فلا وسيلة كي يستجيبوا ويؤمنوا به لأنهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، فهم موتى القلوب كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ (النمل: ٨٠)، فكما أن الله تعالى هو وحده قادر على أن يبعث الموتى من قبورهم، فهو وحده تعالى قادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان، أما أنت يا محمد فلا تقدر على ذلك. وأما وجه تشبيه الكفرة بالموتى فلأن حياة الروح بالعلم ومعرفة الخالق سبحانه وتعالى كما أن حياة الجسد بالروح[٥١].

المطلب الرابع: أسلوب الاستفهام الإنكاري والنفي

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (القصص: ٧١)، فهنا أنكر على المشركين عدم استثمارهم لنعمة السمع في إدراك الحقائق الكونية والتفكر فيها، ومعرفة السنن الإلهية كي يتعظوا بها، ولا سيما أن حاسة السمع جاءت في سياق الحديث عن الليل الذي تستخدم فيه هذه الحاسة أكثر من غيرها من الحواس. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (السجدة: ٢٦) فقد أنكر على الكافرين عدم أخذهم العبرة والعظة[٥٢] بما سمعوه من قصص الأمم السابقة التي أهلكها الله تعالى لعصيانها وإنكارها رسالة الأنبياء عليهم السلام.

---

[٥٠] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو جار الله الزمخشري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧)، ط٣، ١٩٨/٣- ١٩٩.

[٥١] قارن بالكشاف، الزمخشري، ٢٠/٢، وبغرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق زكريا عميرات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦ هـ)، ط١، ٧٢/٣.

[٥٢] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ)، ط١، ٢٢٣/٤.

كذلك، فقد ورد أسلوب النفي في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ ﴾(الأعراف: ١٧٩) نفى الحق تعالى عن أن يكون للكافرين سمع يرشدهم لمعرفة الحق، واتباعه وجاءت صيغة الفعل بالمضارع للدلالة على تجدد هذا الأمر وحدوثه عند هذا الصنف من الناس الذين ستروا نعمة الله بالكفر.

المبحث الرابع: مسؤولية السَّمع ومجالاته كما بينها القرآن الكريم:

المطلب الأول: مسؤولية السمع وصيانته

إن الله تعالى وهبنا نعما كثيرة لا تحصى ومنها نعمة السمع التي تستحق منا شكره عليها، ولكن قليلا من الناس من يشكر الله على هذه النعم قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧٨)، وقد حملنا الله مسؤولية تجاه هذه النعمة التي سيسألنا عنها كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ (الإسراء:٢٧٨)، لذا فمسؤوليتنا تجاه السمع تكون بأن نستخدمه في الأمور النافعة لنا في دنيانا وأخرانا، وأن نصونه عما يضرنا في دنيانا وأخرانا.

أولا: استخدام السمع في الأمور النافعة: فهناك أمور كثيرة جديرة بالاهتمام بها ومن ذلك:

أ- استخدام السمع في التعلم والتدبر وأخذ العبرة:

جعل الله السمع وسيلة أساسية في التعلم وتلقي العلوم، ولولاه لما استطاع الإنسان أن يتعلم العلم النافع. وجعل الله السمع أيضا وسيلة لإدراك عظمة الله وأخذ العبرة عبر إدراك آياته في الأنفس وفي الآفاق أو في التاريخ فقال الله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ (الروم: ٢٣)، فالنوم ليلا أو نهارا هو من الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه، وطريقة معرفة كونه آية من آيات الله هو الاستماع لأهل العلم والاختصاص، ولا يتم ذلك إلا بحاسة السمع، وكذلك فمن لم يتأمل آيات الله في النوم فهو كالنائم الذي لا يسمع .

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾ (السجدة: ٢٦)، فقال: ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾ لأن طريقة معرفة إهلاك القرون الأولى إنما وصل إليهم عن طريق السمع وليس عن مجرد التفكير والاستنباط، فمن كانت له أذن واعية يتعظ ويهتدي.

ت- حث المؤمنين على الاستماع للقرآن الكريم وطاعة أوامر الله ورسوله ﷺ:

أي كتاب أجدر من كتاب الله تعالى بالاستماع إليه والتأمل فيه وتدبره والعمل به؟، ولا يكون ذلك إلا بالاستماع إلى آياته، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٤)، ومدح الله المؤمنين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥۚ ﴾ (الزمر: ١٨)، ومدح الله تعالى وفد النجاشي الذين استمعوا للقرآن وآمنوا به فقال

تعالى:﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ (المائدة: ٨٣)، وبالمقابل ذم الله تعالى الذين لا يستمعون للقرآن فقال: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ (الجاثية: ٧-٨)، وقال أيضا: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ (الأنبياء: ٢)، وإن قسما من هؤلاء الكافرين ينهى عن الاستماع للقرآن، قال الله تعالى: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

ومن سمات المؤمنين أنهم بمجرد سماع أوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فإنهم يطيعون قال الله تعالى:﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾(البقرة: ٢٨٥)، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ (التغابن: ١٦)، وقال تعالى أيضا: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (النور: ٥١)، خلافا للكافرين الذين ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ (البقرة: ٩٣).

ثانيا: صيانة استخدام السمع عن الأمور الضارة: فهناك أمور كثيرة جديرة بتجنبها وتركها ومنها:

أ- صيانة السمع عن الغيبة وإشاعة الأخبار الكاذبة:

جعل الله عرض المسلم محرما على غيره من المسلمين، فلا يجوز قدح المؤمنين وذمهم وخصوصا عند غيابهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ (الحجرات: ١٢) فمن سمع الغيبة يشترك مع المغتاب في أكل لحم أخيه ميتا.

ومن باب الحفاظ على عرض المسلم أن لا يتكلم المرء بكل ما ينقل له عن المسلمين، بل عليه أن يتأكد ويتحرى قبل أن ينقل أي كلام، ولهذا قال الله تعالى معاتبا الذين سمعوا حادثة الإفك وأشاعوها فقال الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ (النور: ١٦)، وكذلك فإن المسلم عليه أن يتحرى كل ما ينقل إليه من الناس الفاسقين قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ (الحجرات: ٦)، وقد مدح الله نبيه صلى الله عليه وسلم لما ذمه المنافقون بأنه يصدق كل ما يقال له، فقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ (التوبة: ٦١)، فالمؤمن أذن خير ينقل الخير ولا ينقل الشر، ويتحرى في نقله.

ب- صيانة السمع عن الاستماع للخائضين في ذم الدين الإسلامي:

نهى الله تعالى المؤمنين أن يجلسوا في مجلس فيه كفر بالله وآياته، أو فيه استهزاء بأي شيء متعلق بالإسلام فقال تعالى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ (النساء: ١٤٠)، فالمسلم يصون سمعه عن مجالسة المفسدين في الأرض الذين يذمون الإسلام والمسلمين بإعلامهم الكاذب، ويحبون أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، ويذيعون الأخبار الكاذبة عنهم، ويخوفون المؤمنين من تطبيق أحكام الشريعة

وغيرها، قال الله تعالى يذم المنافقين الذين يفشون أسرار المؤمنين لأعدائهم: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ (النساء: ٨٣) .

ومن هؤلاء الأشرار ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (لقمان: ٦) فيصد الناس عن دين الله وطاعته، وما يقرّب إليه من قراءة قرآن وذكر الله، وذلك بالغناء والاستماع له، وبكل ما كان من الحديث ملهيا عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه أو رسوله، فعن مجاهد: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال: "الغناء والاستماع له وكل لهو"، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال: هؤلاء أهل الكفر، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان: ٧)، فليس هكذا أهل الإسلام، فسمع المؤمن يشبه النحلة التي تقع على الزهور فتخرج منها عسلا صافيا فيه شفاء للناس، وأما المنافق والكافر فسمعه كالذباب لا يقع إلا على الأوساخ.

وذكر السمع في مجال ذكر نعم الله على الإنسان

ذكر السمع في مجال ذكر نعم الله على الإنسان بأن جعل الله له السمع والبصر والفؤاد وذلك حتى يشكره هذا الإنسان لا أن يكفره. وتأتي أهمية سمع الإنسان في فهمه لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ **ولهذا بين القرآن الكريم لنا نوعين من الناس :النوع الأول** :المؤمنون الذين يستمعون للقرآن وللنبي ﷺ ويتبعونهما فيما أمرا ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (سورة النمل: ٨١) وإذا ما استمع هؤلاء المؤمنون للقرآن يتلى، خشعوا أو بكوا ولهذا يكون جزاؤهم الجنة حيث لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا ولا كذابا، ولا يسمعون حسيس جهنم وهم عنها مبعدون. ومن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم إذا استمعوا لشيء نافع يتبعونه ويطبقونه فورًا قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ (الزمر:١٨)، وهم أيضا أبعد ما يكونون عن سماع الغيبة أو النميمة أو غيرها مما حرمه الله تعالى، فآذانهم آذان واعية، تصغي للحق وتعمل به، قال الله تعالى: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ (الحاقة: ١٢)، وقال تعالى يمدح مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ (الجن: ١٣).

والنوع الثاني: الكفار والمنافقون والفاسقون الذين يسمعون للقرآن وللنبي ﷺ ولا يعملون بما سمعوه ويستهزئون بما سمعوه وبالنبي ﷺ وينهون غيرهم عن سماع هذا القرآن ويأمرونهم بأن يلغوا فيه، ولهذا كان سمعهم نقمة عليهم، فشبههم الله تعالى بالدواب والموتى وأصحاب القبور قال تعالى: قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (الممتحنة: ١٣)، وعاقبهم في الآخرة بسماعهم لزفير جهنم وعندها يندمون لأنهم لم يستفيدوا من أسماعهم، ولات حين مندم.

المطلب الثاني: الأمر بالاستماع إلى آيات الله المتلوة وتدبرها:

قد أمر الله تعالى المؤمنين في كتابه العزيز بأن يتلوا القرآن حق تلاوته وأن يستماعوا له وينصتوا، وهذا الاستماع هو استماع تدبر وفهم، يتبعه عمل وخشية من الله تعالى ومحبة له سبحانه وتعالى، ومن ثم ينتج عن ذلك أمة تكون خير أمة أخرجت للناس، إنها أمة الشهادة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وأمة الحضارة لأن الحضارة الحقيقية هي بالإنسان الصالح وبالعمل الصالح. وقد حث الله المؤمنين في آيات كثيرة على تدبر القرآن والتدبر يأتي بعد الاستماع، والتدبر هو: التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[٥٣]، وأول الآيات الآمرة بالتدبر نزولا قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩)، ورقمها حسب النزول هو ٣٨، ونشير إلى آيات أخرى حول موضوع التدبر دون ذكر نصها وهي: المؤمنون: رقم نزولها: ٧٤، رقم الآية: ٦٨، والنساء: رقم نزولها: ٩٢، ورقم الآية: ٨٢. ومدح القرآن الكريم المؤمنين الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وهدى، ومدحهم أيضا في أماكن عديدة أنهم تلين قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله، وتقشعر جلودهم من خشية الله، ويخرون للأذقان سجدا يبكون ويزيدهم خشوعا. هذه هي الصورة الرائعة التي يعرضها علينا القرآن الكريم عن طائفة السعداء الذين أنعم الله عليهم من ذرية آدم.

وفي المقابل يعرض علينا القرآن صورة المغضوب عليهم وموقفهم المعادي للقرآن الكريم فهم لا يستمعون لهذا القرآن ويلغون فيه، ويستهزئون بآيات الله تعالى، ويجعلون القرآن عضين، ويقولون إنه أساطير الأولين، فهم لم يروا فيه الحقائق الناصعة بل زادهم ضلالة وإثما وعمى، لأن قلوبهم مقفلة لا يدخلها نور القرآن ولا هداه بما كانوا يكسبون من أعمال فاحشة منكرة وبغيهم وطغيانهم في الأرض، فأضلهم الله عن صراطه المستقيم، وأعمى أبصارهم عن نوره المبين، وأصم آذانهم عن سماع الحق والقرآن الكريم.

المطلب الثالث: الأمر بالاستماع إلى آيات الله الكونية بمعنى تدبرها والاعتبار بها

أما المجال الرئيسي الآخر لاستخدام السمع بعد الاستماع لكتاب الله المسطور والأمر بالعمل به واتباعه والخشوع له عند سماعه، فهو توجيهه نحو الاستماع إلى آيات كتاب الله المنظور في الكون لتدبرها وأخذ العبرة منها[٥٤]، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (يونس:٦٧)[٥٥]، فالله الذي يستحق العبودية وحده هو الذي له ما في السماوات والأرض، وهو الذي فصل بين الليل والنهار، لتسكنوا في الليل من عناء النهار، وإنما قال في الآية: "لأن المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج ويتفكرون فيها، فيعتبرون بها ويتعظون، ولم يرد به: الذين يسمعون بآذانهم، ثم يعرضون عن عبره وعظاته".[٥٦] والقرآن الكريم قد حث المؤمنين في آيات كثيرة على التفكر في ملكوت الله

---

[٥٣] قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حبنكه، (دمشق: دار القلم، ١٩٨٩)، ط٢، ص: ١٠.

[٥٤] مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠)، ط٣، ٢٨٠/١٧.

[٥٥] انظر كذلك سورة النحل: ٦٥.

[٥٦] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق شاكر، ٢٨٠/١٧.

تعالى وفي الكون وذلك لإدراك عظمة الخالق سبحانه، والإذعان لقدرته وسلطانه. وقد قدر العلماء عدد الآيات التي تتناول أمورا علمية **بألف وأربعمائة آية** من مجموع آي القرآن البالغ عددها ستة آلاف ومائتي آية، أي ما يعادل عشرين بالمائة من مجموع الآيات القرآنية. والقرآن الكريم مليء بآيات تحث المؤمنين على التفكر والتعلم مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (النساء: ٨٢)[٥٧]، وقوله عز وجل:﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤)، وغيرها من آيات كثيرة تأمر باستخدام العقل لاكتشاف قوانين الكون وتسخيرها لمصلحة الإنسان.

المطلب الرابع: الأمر بالاستماع إلى قصص الماضين للاعتبار:

إن الله عز وجل قص علينا في كتابه العزيز أحسن القصص، وذكر كثيرا من القصص لأخذ العبرة منها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف: ١١١)، فذكر الله لنا سننه في نصرة أنبيائه وعباده الصالحين وتوفيقه لهم، فقص علينا أحسن القصص كقصة يوسف وإخوته، وقصة موسى وقومه، وقصة داود وسليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، وكذلك قص القرآن علينا قصص الأقوام التي عاقبها الله تعالى بعد أن عصوا وعتوا كل ذكر لنعتبر ونستقيم على شرعه فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ (الفجر:٦-١٣)، والاتعاظ بكل ما سبق إنما يكون بعد سماع ما حل بهذه الأقوام من عقوبة إلهية، ولهذا استخدم السمع للاعتبار بالأحداث في معرض الكلام عن الأمم السابقة فقال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (السجدة:٢٦).

وذكر القرآن الكريم فقدان السمع لدى الأصنام كدليل على أنهم ليسوا بآلهة فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ (مريم: ٤١-٤٢)، فقد نقض ألوهية الأوثان وأنها لا تستحق العبادة بكونها لا تسمع ولا تبصر من يدعوها، وصفة السمع من أهم صفات الألوهية فقد قال الله تعالى لموسى وهارون: ﴿ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (طه: ٤٦)، "والدعاء مخ العبادة، فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي فأي منفعة في عبادته، وإذا كانت لا تبصر بتقرب من تقرب إليها فأي منفعة في ذلك التقرب"[٥٨] والإله يجيب دعاء عباده (أمن يجيب المضطر

---

[٥٧] محمد: ٢٤.

[٥٨] مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، ٥٤٣/٢١.

إذا دعاه ويكشف السوء) والأوثان لا تجيب أحدا، ثم كيف يليق بالإنسان أن يعبد من هو دونه في الصفات، إذ إنه يسمع ويرى وهذه الأوثان لا تسمع ولا ترى؟

وهكذا نرى كيف اهتم الإسلام بحاسة السمع التي هي آلة مهمة في معرفة الحقائق في كل من الكتابين كتاب الله المسطور (القرآن) وكتاب الله المنظور (الكون).

الخاتمة والتوصيات

تناول هذا البحث مصطلح (السمع) وكيفية وروده في القرآن الكريم سواء كان متعلقا بالله تعالى أم كان متعلقا بالإنسان، وتبين أن السمع ومشتقاته قد ورد في القرآن الكريم مائة وخمسا وثمانين مرة. وقد عرف البحث السمع لغة واصطلاحا، وبين الدور المهم الذي تقوم به هذه الحاسة في حياة الإنسان ليتمكن من إدراك الحياة حوله، وأما استخدامه في المصطلح القرآني فعندما يلاقيك فهو يعني سماع الكلام والأصوات وإدراك ما تنقله من معلومات، ويعبر عن السمع أحيانا ويقصد به الأذن، أو التعقل، أو السماع والفهم. ونجد في الاستخدام القرآني أن السمع قد اقترن مع البصر في ثمان وثلاثين مرة وقدم في معظمها على البصر تأكيدا للدور الذي يقوم به السمع في حياة الإنسان إذ إن الإحساسات الصوتية التي تسمعها الأذن تصل مستوى الوعي أحسن من تلك التي تصله عن غير طريقهما كالبصر، والذاكرة السمعية أرسخ من الذاكرة البصرية وهذا ما أكده المولى سبحانه عندما قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٧).

أما اللمحة الإعجازية في تقديم السمع على البصر في الآيات التي تتعلق بخلق الإنسان ونشأته فهي من ناحيتين: أ- أن مركز السمع في قشرة المخ متقدم على مركز البصر. ب- أن جهاز السمع يتطور ويتكامل جنينيا قبل جهاز البصر. وأما عند ذكر العين والأذن فيلاحظ أن القرآن الكريم يذكرهما حسب ترتيبهما الحسي في الرأس إذ تتقدم العين على الأذن. وهذه اللمحات الإعجازية تؤكد أن القرآن الكريم إنما هو كتاب الله أنزله بعلمه، وأنه أنزل من لدن حكيم عليم. وتضمن هذا المبحث الكلام عن **مسؤولية السمع وصيانته. وختم المبحث الأول بالكلام عن** وصف الله ذاته العلية المقدسة بأنه (السميع) فهي صفة لله واسم له، واقترن اسم السميع في القرآن الكريم بأسماء أخرى لله تعالى مثل العليم والبصير والقريب، ومن دلالات استخدام السميع مع هذه الأسماء أن صفة السمع نافذة وحاضرة في كل آن ومكان فسبحان من وسع سمعه الأصوات، وسبحان من لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وهو معكم أينما كنتم وهو السميع البصير.

وقد تناول المبحث الثاني المفردات التي لها تعلق بالسمع كالصمم والوقر والإنصات والآيات المتعلقة بها. وتضمن المبحث الثالث أساليب ذكر السمع في القرآن الكريم ومن أهم هذه الأساليب: المدح له، الذم، الأمر بالاستماع للحق واتباعه والاستماع للقرآن الكريم، النهي، التوكيد، الاستفهام الإنكاري، القصر بإنما، النفي. وأما المبحث الرابع فناقش مجالات السمع: أ-مجال ذكر نعم الله تعالى حتى يشكره الإنسان، ومواقف الناس منذلك مؤمنين وكافرين، ب-الأمر بالاستماع لآيات الله في القرآن وتدبرها،

ج– الأمر بالاستماع لآيات الله في الكون وتدبرها والاعتبار بها لإدراك عظمة الخالق سبحانه، د–الاستماع لقصص الماضين للاعتبار بها.

وأما أهم توصيات هذا البحث فهي: ١–يوصي الباحث بدراسة كل المصطلحات القرآنية دراسة معمقة، والربط بين الحقائق العلمية والآيات القرآنية. ٢–ضرورة الالتزام بقواعد اللغة العربية وقواعد التفسير عند شرح المصطلحات القرآنية، وذلك حتى نحافظ على الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى وآياته. وهكذا يكون البحث قد حاول أن يعطي فكرة موجزة عن موارد استخدام مصطلح السمع في القرآن الكريم قدر الجهد الممكن. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل فإنه نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

الإدراك الحسي البصري والسمعي، السيد علي سيد أحمد وفائقة محمد بدر، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ٢٠٠١)، ط١.

الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي، هيئة الإعجاز العلمي، جدة ٢٠٠٦، ط٣.

الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في السمع والبصر والفؤاد، صادق الهلالي، مجلة الإعجاز، العدد التاسع، صفر ١٤٢٢.

إنباه الرواة على أنباه النحاة، أبو الحسن علي القفطي، المكتبة العصرية، (بيروت: ١٤٢٤)، ط١.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ)، ط١.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (صيدا: المكتبة العصرية، د.ت).

تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، (لا مكان، دار الهداية، د.ت).

التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤).

التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الغرناطي، تحقيق عبد الله الخالدي، (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، د.ت).

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠)، ط١.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق صدقي جميل العطار، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥).

الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: ط دار الكتب، (١٩٣٨).

الجامع الصحيح، أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).

سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الفكر).

سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت).

شرح ابن القيم لأسماء الله الحسنى، عمر سليمان الأشقر، ط١ عمان: دار النفائس، ٢٠٠٨.

الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحق أحمد عبد الغفور عطار، (القاهرة: دار الكتاب العربي ١٩٥٦).

عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق محمد عيون السود، (بيروت؛ دار الكتب العلمية، ١٩٩٦)، ط١.

العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (دار الهلال، د.ت).

غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق زكريا عميرات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦ ه)، ط١.

قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حبنكه، (دمشق: دار القلم، ١٩٨٩)، ط٢.

كتاب الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عماد الدين حيدر، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤)، ط٢.

لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط١ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٢).

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، محمد عبد الحق بن عطية، تحق عبد الله الأنصاري وآخرين، (الدوحة: ١٩٨٣).

مختار الصحاح، أبي بكر الرازي، تحقيق محمود خاطر، (، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٤١٥/١٩٩٥).

المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).

معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣ م)، ط١.

معجم مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٩م).

معجم كلمات القرآن العظيم، محمد عدنان سالم و محمد وهبي سليمان، (دمشق: ١٩٩٨) ط١.

مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠)، ط٣.

المفردات فى غريب القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحق محمد خليل عيتاني، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨م).

المواقف في علم الكلام، عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، (بيروت: عالم الكتب، د.ت).

موسوعة المورد، دائرة المعارف، إنكليزية عربية، منير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١).

النشر في القراءات العشر، محمد بن محمد بن الجزري، تحقيق محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، دار الكتاب العلمية، بيروت، د.ت).

النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).

الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي، تحق عادل عبد الموجود و علي محمد معوض وآخرون، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤)، ط١.

Elaine N. Marieb, *Essentials of Human Anatomy and Physiology*, (San Fancisco: Pearson Education, 2012).